المقدمة

الرصاصة التي لا يمكن أن نتوقعها هى الخيانة ،وللخيانة السياسية في تاريخ مصر والعالم العربى والاسلامى دورٌ كبير،فحوادث التاريخ حافلة بحكايات الخيانة واتهامات العمالة، وهي وقائع حقيقية أحياناً ومتخيلة في أحيانٍ أخرى فالخيانة هي أسرع اتهام نوجهه إلى خصومنا السياسيين عندما نختلف معهم وظاهرة الخيانات فى العالم العربى تستحق الوقوف عندها والتعامل معها بجدية ، فهذه الظاهرة أصبحت متكررة وهى تمتد إلى أبعاد تاريخية سحيقة كما أنها تحدث فى أوساط متعددة سواء على المستوى الشخصى أو على المستوى العام فى أعلى درجاته حيث السلطة والحكم.

وتتفرع الخيانات ما بين خيانة للوطن نفسه وخيانة للنظام الحاكم أيا كانت طبيعته وخيانة للمؤسسة التى ينتمى إليها الفرد سواء كانت عسكرية أو اقتصادية أو تعليمية كما أن هذه الظاهرة تهبط إلى مستويات مختلفة من العلاقات الشخصية والأسرية وعلاقات العمل والتجارة ولذلك فلابد من البحث فى جذورها وأسبابها.

فهل ترجع هذه الأسباب إلى خلل معين فى التنشئة الاجتماعية لا يعتنى بقيم الصدق والأمانة والإخلاص؟ أم أنها تعود إلى ضغوط مادية تستجيب لها النفوس الضعيفة والمريضة فتنهار بسرعة وتفرط فى أمانات كان يجب أن تحافظ عليها؟ وقد تعود الظاهرة وبالذات عندما تحدث على

المستوى السياسى أو العسكرى إلى أسباب أخرى منها مخالفة العقيدة بالكيد لها والانقلاب عليها وتشجيع وخدمة خصومها.

كذلك ترجع هذه الظاهرة فى تلك المستويات السياسية إلى طابع الكثير من نظم الحكم المعاصرة التى قامت أصلا على خيانات من خلال انقلابات على أنظمة سبقتها أو من خلال انقلابات على مبادئ دينية وقانونية مستقرة ولذلك فإن الخيانة طبع وسمة مستقرة أصيلة فيها مما يسهل أن يخونها المنضمون إليها بدورهم، كما كانت مع من سبقوها.

ومن السهل فى هذا المناخ أن ينقلب الإنسان على النظام الذى ينتمى إليه لأنه نظام لا يقوم على أسس أخلاقية وإنما ينشأ على أسس من السلب والنهب وفرض السيطرة بالقوة وبالحيلة وبالخداع ولكن أيا كانت أسباب هذه الظاهرة فهى تحتاج إلى معالجتها والقضاء عليها بكشف هذه الأسباب مع ملاحظة أن القضاء على هذه الظاهرة عندما تكون أسبابها ومستويات حدوثها هى المستويات السياسية فإن هذا أمر صعب لأنه يحتاج إلى معالجة لكامل النظام السياسى القائم وليس فقط معالجة بحسن التربية والتنشئة كما هو مطلوب من القضاء على الخيانة عندما تحدث فى مستويات العلاقات الشخصية والأسرية أو العلاقات التجارية ونحن عندما نتوقف عند الخيانات السياسية نفعل ذلك لأنها لا تؤثر فقط على مجموعة أفراد أو مجتمعات ولكنها قد تؤثر على مصير أمم بأكملها وتحدث تحولات تاريخية تغير شكل المنطقة بالكامل لفترات ربما امتدت

لقرون ونذكر هنا على سبيل المثال حوادث فاصلة فى تاريخ أمتنا بدءًا بابن العلقمي، ومروراً بالمعلم يعقوب، ووصولاً إلى بعض زعمائنا المعاصرين ولنفر من الزعماء العرب المعاصرين ونقلهم الأخبار الهامة والسرية للعدو الصهيونى دور معروف للجميع ويتحدث عنه القاصى والداني، وكان الموقف الأشهر هو الاتصال بجولدا مائير رئيسة وزراء الكيان الصهيونى فجراً وإخبارها بموعد قيام الجيشين المصرى والسورى بالهجوم على الجيش الصهيوني.

وقبل ذلك لا يمكن نسيان ما فعله ملوك العرب من خيانة الأمة عام ١٩٤٨سواء فى طريقة قيادة المعارك أو فى التورط فى قضية الأسلحة الفاسدة.

ومؤخرا قيام حسين كامل صهر صدام حسين بتقديم تقارير للأمريكان بعد هروبه من العراق للأردن مدعيا وجود أسلحة كيمائية وكانت تلك المعلومات المضللة ذريعة بعد ذلك لضرب العراق واحتلالها، بعد أن كانت لجنة التفتيش آنذاك على وشك إعلان العراق خالياً من أسلحة الدمار الشامل وأخيرا وليس آخرا ما قام به عبد الحليم خدام الذى ظل جزءًا من النظام السورى الحاكم لمدة أكثر من ثلاثين عاماً وظل طامعاً فى هذا الحكم حتى آخر يوم فى عمره ولما لم يكن له ما أراد انقلب على بلاده.

وتعتبر الخيانات الفردية هذه فى ظل الضعف العربى بمثابة ذريعة لضرب شعوب بأكملها، تلك الشعوب العاجزة هى الأخرى كلية نتيجة

القهر والاستبداد عن أن تفرق بين الحق والباطل،وبين العدو والصديق فهناك فصائل ما زالت تقوم هى الأخرى بمواقف خيانة تجاه المخالفين فى الفكر فى نفس الوطن الواحد فما يقوم به ما يسمى بفيلق بدر الشيعى الذى انتهج سلوكا عدائيا شرسا ضد أهل السنة حتى كاد يتفوق على العداء الأمريكى لأهل العراق وقد سار على دربه مجموعات من الأفراد والتجمعات التى كانت ترفع الشعارات الإسلامية وهم فى الحقيقة طائفيون يعملون ضد الوطن لصالح القوى الخارجية.

وما يقوم به أيضا الدروز فى لبنان وتحت قيادة وليد جنبلاط من تأليب للقوى الخارجية ضد سوريا وضد لبنان أيضا إنما هو صفحة جديدة من صفحات الخيانة والغدر، بل ويقوم الدروز بخيانات عظمى لصالح الصهاينة ضد الفلسطينيين، وما الجاسوس عزام عزام عنا ببعيد ، وما يلاحظ بجلاء أن غالب تلك الخيانات إنما تأتى من أصحاب العقائد المنحرفة فالشيعة الباطنية تارة والنصيريون تارة والدروز تارة ..الخ

ومثل تلك الخيانات المتكررة والمتداخلة والتى تنهك الجسد العربى المثقل بأعبائه فى تلك المرحلة التاريخية وتلك الخيانات لابد من التوقف عندها لأنها على وشك أن تكون سمة غالبة لدى العديد من الجماعات والأفراد ذات الأداء السياسى العام وتضر بالمصالح العامة للشعوب العربية المسلمة.

وعندما نطالع كتابات مؤرخي مصر في تاريخها القديم والحديث

والمعاصر، سنجدهم يقررون أن الخيانة كانت السبب الرئيسي للاحتلال العثماني لمصر، فهزيمة قانصوه الغوري في مرج دابق ثم هزيمة طومان باي في الريدانية مردهما عندهم إلى الخيانة في صفوف المماليك خيانة خاير بك نائب حلب وخيانة الأمير جان بردي الغزالي كذلك كان نجاح سليم العثماني في إلقاء القبض على طومان باي ثم إعدامه نتيجة لخيانة عرب البحيرة، الذين لجأ إليهم طومان باي فغدروا به وسلموه ليشنق على باب زويلة وبالطبع لا يمكن أن ننكر أن خاير بك كان خائناً لسلطانه الغوري وأنه انسحب من ميدان المعركة ليُمكِنَ القوات العثمانية من اختراق صفوف الجيش المملوكي وقد قبض خاير بك ثمن خيانته فأصبح والياً على مصر من قبل العثمانيين، وسماه الشعب المصري خاين بك ولقد كان جيش المماليك في مرج دابق والريدانية أضعف في تسليحه من أن يصمد أمام الغزاة العثمانيين ، فهو جيشٌ يعتمد على الفرسان والسيوف والرماح، أمام جيشٍ مسلح بالمدافع والبنادق

أما جيش عرابي فبالرغم من تسليحه الحديث نسبياً، فإن قيادته انخدعت بوعد فرديناند ديليسبس بعدم السماح للقوات البريطانية بالمرور من القناة فركزت التحصينات في دمياط وكفر الدوار، وتركت المنطقة الشرقية بتحصيناتٍ ضعيفة كانت مسئولة بالدرجة الأولى الى جانب الخيانات التى توفرت لعرابى عن الهزيمة قبل خيانة الخونة وما يسعنا أن نستحضره فى هذا الصدد موقف رسول الله ﷺ فى

حديث السفينة حيث أكد على أن الخرق إن كان فى الأسفل سيصيب حتما من هم فى الأعلى وجميعنا فى سفينة واحدة وليس بعضنا فى مأمن مرحلى مادام الخطر واحد يتربص بنا جميعا ولنقرأ الماضى ونعى الحاضر ونخطط للمستقبل لأنه لا سبيل للخلاص على المدى القريب والبعيد والمتوسط إلا بدرء تلك المفاسد.

ولقد كنت أود أن أتحدث عن الخيانة عموما خيانة الوطن والمعروفة بالخيانة العظمى والزوجية وخيانة الأمانة ولكن لأن كل الخيانات تجمعها بوتقة خيانة الأمانة فقد عدلت عن ذلك وسوف أركز على الخيانة السياسية والعسكرية ومعها الخيانة الزوجية لما لها من تأثير قد يكون إلى حد كبير هو الأساس فى التنشئة وتدفع لخيانة الوطن فيما بعد

أسامة عبد الرحمن

opelkandl.com